١٢

مذنب بالاشتباه

لنقُل إنه لا يوجد شيء تفعله إسرائيل والولايات المتحدة بشكل مستقل عن بعضهما.

أرنون ميلتشان لمجلة لوس أنجلوس أبريل ٢٠٠٠

كانت الأموال تتدفق. واستمرت إيرادات المشاريع في إيران. واستمرت ميلكو وعمليات أخرى في تأدية مهامها لتوفير التكنولوجيا والمواد الداعمة لبرامج إسرائيل النووية والصواريخ الباليستية.

obeikandl.com

كانت الخطوات التى اتخذها ميلتشان لصالح إسرائيل فى جنوب إفريقيا قد أتت ثمارها الوفيرة، إذ ازدهرت واردات الدفاع العسكرى وصادراته وزادت المخصصات التى يخصصها الكونجرس الأمريكى سنوياً للمعونة العسكرية، فيما استمرت شركة ميلتشان إخوان فى أنشطة توزيع الأسمدة والكيماويات المربحة. وأثناء كل ذلك كان ميلتشان غارقاً فى علاقة ملتهبة بالحسناء السويدية أولريكا.

أثناء تواجده فى إسرائيل وبعيداً عن قاعدته فى باريس، كان أرنون يقضى معظم وقته فى عقد الاجتماعات فى ملهى خاص جديد افتتحه صديقه رافى شولى فى أبريل ١٩٧٧ فى شمال تل أبيب. وسُمى المكان الجديد "الملهى" ببساطة.

وإن كان "مانديز" هو مركز مجتمع النخبة الإسرائيلى، فقد تجاوز "الملهى" ذلك بمراحل. إذ كان منعزلاً وحصرياً، وتم اختيار أعضائه بعناية من النخبة

obeikandl.com

الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، من قبل لجنة عضوية متشددة. وأضفى هذا جواً من السرية حيث كان ينتظر من الأعضاء استخدام نفوذهم للعناية ببعضهم البعض.

يوم الجمعة ١٠ ديسمبر ١٩٧٦، هبطت ثلاث طائرات إف ١٥ مقاتلة فى قاعدة تل نوف الجوية خارج روحوفوت، مما جعل إسرائيل الدولة الأولى بخلاف الولايات المتحدة التى تمتلك طائرات إف ١٥. لكن بسبب الرياح المعاكسة التى واجهتها الطائرات فى رحلتها الطويلة، بالإضافة إلى التزود بالوقود فى منتصف المسافة، فقد هبطت متأخرة فى ذلك اليوم، هبطت ويوم السبت المقدس يوشك على البداية.

ونتيجة لذلك، لم يتمكن عدد من الوزراء المتدينين من العودة لمنازلهم من

مراسم الاستقبال فى موعدهم، وأجبروا على انتهاك قدسية يوم السبت. وكانت تلك هى القشة الأخيرة بالنسبة لبعض السياسيين، وترك بعض من أعضاء الكنيسيت المتدنيين الائتلاف الحاكم، بما سبب انهيار أول حكومة لرابين وتمت الدعوة إلى انتخابات جديدة.

لكن المفاجأة التى زلزلت إسرائيل عقب انتخابات الدورة التاسعة من الكنيسيت فى ١٧ مايو ١٩٧٧، صدمت البلد فى عمقه السياسى، وكانت هى وصول حزب الليكود المحافظ بقيادة مناحم بيجين، إلى السلطة لأول مرة، وأقصى بذلك حزب العمل، والذى كان قد هيمن على الحياة السياسية فى البلد بشكل أو آخر منذ قيامها. وفجأة أصبح بنيامين بلومبيرغ مدير وكالة لاكام يقف على أرض غير صلبة. وغدا مدير ميلتشان ومعلمه فى خطر حقيقى من خسارة منصبه إذ سعت الإدارة الجديدة إلى تعيين رجالها فى المناصب الهامة. كان وزير الدفاع الجديد عيزر وايزمان -ابن شقيق حاييم وايزمان أول رئيس لإسرائيل- يسعى للتخلص من بلومبيرغ ليحل محله موالٍ للحزب.

لم يكن بلومبيرغ ليستسلم بسهولة، وذهب مباشرة إلى رئيس الوزراء بيجين، ودفع بأن عضويته فى لجنة الطاقة الذرية الإسرائيلية، ومسئوليته عن مجمع المفاعل فى ديمونة، وموقعه القيادى فى برنامج الأسلحة النووى، وتوليه المباشر لشبكة إسرائيلية من العملاء السريين غير الرسميين حول العالم يعنى بأنه يتلقى أوامره مباشرة من رئيس الوزراء لا من وزير الدفاع.

ولم يكن بيجين أخرق سياسياً، وبخلاف العديد من وزرائه، لم يكن ليتسرع فى التخلص من الأشخاص الموهوبين بسبب ميولهم السياسية. واقتنع بيجين بحجة بلومبيرغ، وأصدر أمراً بإلغاء إقالته. ومن الواضح أن بيجين فهم أن

برنامج إسرائيل النووى، وتطور الصواريخ الباليستية فيه، وأنشطته الاستخباراتية لم تكن دُمّى سياسية يُلعب بها.

وتأقلم ميلتشان سريعاً مع القادة السياسيين الجدد فى إسرائيل، وكان شمعون بيريز صديقه المخلص، لكنه سرعان ما كون صداقات حميمة مع آخرين، ومنهم وزير الدفاع الجديد عيزر وايزمان. كانت صداقاته وعلاقاته عميقة ومنتشرة فى كل الأطياف السياسية، بما جعله بمثابة جسر بين المؤسسة الاستخباراتية والحكومة الجديدة، وهو دور لا يزال يلعبه مذاك، فى كل حكومة إسرائيلية تقريباً.

وفى الأعوام التالية، تسلمت إسرائيل ١٢٠ طائرة إف ١٥، وبحلول عام ١٩٨٠عقب سقوط الشاه فى إيران، حلت الطائرة إف ١٦ محلها فى الترسانة الجوية الإسرائيلية. وكانت طائرات إف ١٦ تلك، مصنعة خصيصاً لأجل إيران لكن تم نقلها إلى إسرائيل بعد سقوط الشاه فى ١٩٧٩ .

فى الواقع، تزامن حدثان فى تلك الآونة حفزا على زيادة المعونة العسكرية الأمريكية إلى إسرائيل، أولهما كان الثورة الإيرانية، والتى أنهت اهتمامات ميلتشان بإيران، وثانيهما كان اتفاقية كامب ديفيد الموقعة فى ١٧ سبتمبر عام ١٩٧٨ . وبالرغم من أن سقوط الشاه كان هزيمة استراتيجية لكل من إسرائيل والولايات المتحدة، فقد عزز من مكانة إسرائيل بصفتها الحليف الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى المنطقة بأكملها، وكان جزء من اتفاقية كامب ديفيد يشترط زيادة كبيرة فى المعونة العسكرية الأمريكية مقابل موافقة إسرائيل على الانسحاب الكامل من شبه جزيرة سيناء.

ولأول مرة استفادت أنشطة ميلتشان من اتفاقية للسلام، بالرغم من أن

المحرك الرئيسى لأرباحه كان قد ظل يتمثل فى أنظمة الدفاع العسكرى المتقدمة. وكان جيش الدفاع الإسرائيلى يعرف أن لطائرتى إف ١٥ وإف ١٦ منصات صواريخ متطورة، لكنها ستحتاج لأحدث الصواريخ لبلوغ كامل إمكانياتها. وهنا أتى ميلتشان وعملاؤه بتركيبة فاعلة منحت جيش الدفاع الإسرائيلى التفوق التكنولوجى النوعى على كل خصومه فى المنطقة.

كان صاروخ إيه آى إم ٧ سبارو الجو/ جو الموجه متوسط المدى النشط جزئياً، والذى بلغت قيمة الواحد منه ١٢٥ ألف دولار بأسعار ٢٠٠٩، مناسباً لجيش الدفاع الإسرائيلى. وكان سبارو ومشتقاته هى صواريخ جو/ جو تتخطى مدى الرؤية الأساسية فى الغرب حتى السنوات المتقدمة من التسعينيات. وكان من بينها أيضاً صاروخ إيه آى إم ٩ سايدويندر الحرارى قصير المدى الجو/ جو والذى تبلغ قيمته ٨٥ ألف دولار للصاروخ الواحد. وكانت شركة ميلتشان بروس هى والشركات التابعة لها تجلب الأنظمة، التى ثبتت فاعليتها المرة تلو الأخرى، من خلال إسقاطها مرات عديدة طائرات للعدو. وفى ٢٨ أبريل ١٩٨١، أسقط صاروخ إيه آى إم ٧ مروحية إم آى ٨ السورية سوفييتة الصنع وفى ١٤ يوليو من نفس العام دمر صاروخ إيه آى إم ٧ طائرة ميج ٢١ سورية.

ضخمت عمولات ميلتشان التى كانت تقدر بملايين الدولارات من تلك المبيعات حسابات إسرائيل السرية، ووسعت بشكل هائل مجال أنشطتها السرية فى أنحاء العالم ومداها.

وقبل ذلك بشهر فى ٧ يونيو ١٩٨١، أقلعت قوة جوية ضاربة مكونة من ١٦ طائرة من قاعدة عتصيون الجوية فى شبه جزيرة سيناء، وحلقت على ارتفاع منخفض، عبر خليج العقبة، إلى جنوب الأردن، ثم عبر شمال السعودية. وأيضاً

ظلت طائرتان إف ١٥ تحلقان فوق السعودية لنقل الاتصالات والرسائل إلى إسرائيل.

ثم أكملت الطائرات الست عشرة من طراز إف ١٥ وإف ١٦ رحلتها حتى موقع مفاعل أورنراك النووى العراقى فى التويثة. وكانت كل طائرة إف ١٦ تحمل قنبلتين من طراز "مارك" ٨٤ زنة ٢٠٠٠ رطل للقنبلة. وكانت تلك القنابل غير موجهة، وتتطلب المناورة بالقرب من الهدف. ووصلت القوة الجوية الضاربة بالقرب من أوريزاك بدون أن تُرصد وهى تحلق على ارتفاعات منخفضة وحامت حول نقاط كانت قد حددت مسبقاً لتبدأ جولات القصف، بينما كانت طائرات إف ١٥ تطوف فى مسرح العملية لاعتراض المقاتلات العراقية التى قد تحتشد.

أصابت ثمانى قنابل، على الأقل، من بين القنابل الست عشرة التى ألقيت على القبة العازلة للمفاعل ودمرته بالكامل. وكان ذلك من أول الأمثلة على الهجمات الدقيقة، وكانت تلك بالتأكيد أول هجمة مسجلة لتدمير منشأة نووية لبلد آخر. وعادت كل الطائرات الإسرائيلية سالمة إلى قاعدتها.

وتقلصت طموحات العراق النووية لتصبح كومة من الحطام، ولم تتعاف قط. واستمر تقدم برنامج إسرائيل النووى بأسلوب عدوانى سريع.

عادت الكرايترون أو تلك الأنبوبة الكهربية الصغيرة بريئة المظهر التى تستخدم أيضاً كأجهزة شديدة الفاعلية لإطلاق الانفجارات النووية، عادت فى عام ١٩٧٩، مستترة فى مؤخرة قائمة طويلة من القطع الحساسة التى أرسلتها ديبورا بن إسحاق فى هيئة مشفرة إلى ريتشارد سميث فى ميلكو.

لم يكن المال هو المشكلة بالتأكيد، بما أن مفاتيح الكرايترون كان ثمنها ٧٥ دولار للواحدة، ربما كانت أصغر وأرخص قطعة تم طلبها من قبل الشركات

المرتبطة بشركة ميلتشان بروس، والتى كانت آنذاك تطلب المواد الخام والتكنولوجيا بمئات الملايين من الدولارات. لكن المشكلة الكبرى كانت فى الطبيعة الحساسة للغاية لتلك القطع الصغيرة وفى القدرة على تمريرها عبر جمارك الصادرات الأمريكية المزعجة.

ومن الواضح أن بلومبيرغ شعر أنه قد مر وقت كاف يسمح للقيام بمحاولة لتمريرها مرة أخرى. وبدلاً من طلب كمية كبيرة، حاول سميث إرسال شحنات عديدة مكونة من ٣٠ أو ٤٠ وحدة كرايترون على أمل أن تمر من تحت أنف الرادار. وقال سميث إن ميلتشان اتصل به شخصياً للتأكد من فهمه لأهميتها وضرورتها. وكان سميث يعتمد على ميلتشان بروس وكان تواقاً لإرضاء الشركة.

وبحث سميث فى كتاب لوائح صادرات وزارة التجارة ووجد أن الأنابيب الإلكترونية المعبأة بالغاز لها العديد من الأغراض التجارية. لاحظ أن اسم الفقرة الأنابيب الثنائية، الثلاثية، والخماسية وعنوانها الأنابيب المعبأة بالغاز. واستنتج أن تلك القطع، يمكن شحنها بدون ترخيص تصدير ذخائر. وكان بحوزة سميث كتالوج المصنع، والذى كان يحوى صورة مرسومة باليد للكرايترون، الذى بدا بالضبط وأن ثمة خمسة أسلاك تخرج منه، بما يجعله أنبوباً خماسياً. وقرر بعد ذلك استخدام كتاب لوائح وزارة التجارة للمفاتيح الخماسية على الغلاف، وكان اكتشاف السلطات الأمريكية لشحنات الكرايترون إلى شركة ميلتشان بدون رخصة ذخائر لابد وأن يكون مصدراً لحيرته.

وبدا الأمر وكأنه مجازفة، بالنظر لأن شركة ميلكو قد رُفِض طلبها لاستصدار تراخيص تصدير الكرايترون فى الماضى. وفى حالة ظهور محاولة التصدير السابقة، ستكون حجته هى "عُذراً! لقد نسيت". وكان مقرراً لشحنات الكرايترون

أن ترسل إلى شركة هيلى تريدينغ ليمتد، وهى شركة تابعة لشركة ميلتشان بروس، تستخدم فى الأساس لصفقات المروحيات. وسجل المستخدم النهائى مجدداً بأنه شركة روحوفوت إنسترومينتس ليمتد. وتم تصميم الشحنات بحيث تتجنب الشكوك وكتب عليها أنابيب الكاثود البارد المعبأة بالغاز. ولم تذكر كلمة كرايترون. وكانت تلك الأولى من ١٣ شحنة، بإجمالى ٨١٠ مفتاح نووى على الأقل، أرسلت من شركة ميلكو كل بضعة أشهر ما بين أعوام ١٩٧٩ و١٩٨٢ .

وبالرغم من أن ميلتشان كان قد وعد فى الأصل بتمرير معظم المشروعات مع كبار متعهدى معدات الدفاع العسكرى الأمريكية عبر شركة ميلكو، فقد فهم سميث وتوقع أن دوره لا يتعدى عميل واجهة، إذ يُؤمّن الأغراض الغريبة التى يصعب الحصول عليها، وأن ميلتشان استخدم خيارات أخرى للعمليات المعتادة. وهكذا، وربما بدون أن يدرك، أصبح سميث عميلاً آخر فى وكالة لاكام.

وتمكن سميث من شحن محتويات قوائم إسرائيل الطويلة من المنتجات الحساسة، مثل المحاكيات التدريبية لصواريخ الدفاع الجوى، وأجهزة التشويش على الصوت والليزر، وأنظمة الطيران ذات التحكم الآلى، البطاريات الحرارية، الجيروسكوب لأنظمة توجيه الصواريخ، وأى شىء آخر تقريباً قد يحتاجه بلد ليتحول إلى قوة عظمى عالية التقنية مسلح نووياً.

وبالرغم من عدم تركيزه، كان سميث عميلاً ماكراً، واسع العلاقات، له تصريح أمنى متقدم مكنه من البحث عن المكونات المصيرية لإسرائيل فى وضح النهار وشرائها وشحنها. وكان دءوباً فى إخطار الاستخبارات الأمريكية بأنشطته وفى تقديم نفسه كرجل أمريكى وطنى. لكن الشيطان كان يكمن فى التفاصيل.

طالما كانت الطلبات تُسلَّم، كان حساب سميث المصرفى ينمو ومعه حساب

الشركة نفسها. وبخلاف زوجته وأبنائه، فقد انضم إلى الشركة العديد من الموظفين، وتم افتتاح مكتبين فرعيين صغيرين آخرين فى منطقة واشنطن دى سى، فى الأساس للمساعدة فى تأمين التراخيص المتعددة للصادرات، وللحفاظ على العلاقات مع الموردين، والذين كان لدى أغلبهم مكاتب فى تلك المنطقة، وتم تعيين غريتيل سيلر ابنة سميث مسئول حسابات وأمين خزانة للمؤسسة، وكانت هى الأخرى على دراية تامة بالصفقات التى تتضمن شراء الكرايترون وأغراض أخرى.

وعين ميلتشان العديد من زملائه المحترفين الموهوبين فى مجلس إدارة ميلكو، مثل روبرت مينهارت وهو عالم نووى جليل، وأرثر بيهل المدير السابق لتصميم القنبلة الهيدروجينية فى معمل لورانس ليفرمور الوطنى، وإيفان أليكساندر غيتينغ وهو عالم فيزياء وهندسة كهرباء ينسب إليه اختراع نظام "تحديد المواقع الكوكبى" أو "جى بى إس". وعندما انضموا لمجلس الإدارة، زعموا أنهم كان لديهم انطباع بأنهم ينضمون لشركة تتعامل مع تطوير أنظمة الطيران للقوات الجوية الأمريكية ولوكالة ناسا.

كانوا يعرفون ويحترمون ريتشارد كيلى سميث من مجالس الإدارة المتعددة والمهام التى خدموا فيها معاً فى البنتاجون. ومثل سميث فقد كان لديهم كلهم تصاريح أمنية بالغة السرية تمكنهم من الوصول لأحدث التكنولوجيا العسكرية الأمريكية والمتعلقة بالطيران، وكانوا مؤهلين جيداً للجلوس ضمن مجلس إدارة أى شركة فضاء جوى.

وأثناء العام ذاته، وقعت ميلكو عقداً تمدّ بمقتضاه كل أنظمة التحكم للطائرة لافى، وهى طائرة مقاتلة إسرائيلة متقدمة واعدة متعددة الأغراض، وكان الغرض

منها أن تحل محل أسطول طائرات سكايهوك العتيق لتصبح الطائرة المقاتلة الأولى، وهو مشروع تم إجهاضه لاحقاً عام ١٩٨٧ تحت ضغوط أمريكية على إسرائيل لشراء الطائرة إف ١٦ بدلاً منها. ولسداد تكلفة طائرات "لافى" باعت إسرائيل تصميماتها إلى تايوان ولاحقاً إلى الصين، والتى طورت الطائرة شينغدو جيه ١٠ المتقدمة اعتماداً على تصميمات لافى.

ولم تكن لإسرائيل علاقات دبلوماسية رسمية مع الصين حتى مطلع التسعينيات، لكن فى السبعينيات ومطلع الثمانينيات ركز ميلتشان على تايوان كسوق مفتوح طبيعى. ووفقاً لسميث، فقد كانت ٢٠٪ من إجمالى مشاريع شركة ميلكو مع تايوان. وكانت تايوان وليست الصين هى أكثر من استفاد من صفقات تكنولوجيا الدفاع العسكرى مع ميلتشان وميلكو. وكما هو الحال مع جنوب إفريقيا، فقد تعاملت إسرائيل كوكيل عن الولايات المتحدة، وكانت تمد تايوان بأنظمة الأسلحة والتكنولوجيا النووية بعد أن شعرت الولايات المتحدة بعدم الارتياح لفعل ذلك نظراً لعلاقتها بجمهورية الصين الشعبية. وكما هو الحال مع جَنوب إفريقيا، فقد عمل ميلتشان كوسيط فى تلك العلاقة.

وفى النهاية اقتنع الصينيون وفتحوا علاقات ثنائية مع إسرائيل، مما أدى لانخفاض شديد فى شحنات الدفاع العسكرى الإسرائيلية إلى تايوان وزيادة المبيعات فى الصين، ولم يكن ثمة حاجة لوجود وسطاء. وبحلول عام ١٩٩٢، تحققت العلاقات الدبلوماسية الكاملة بين إسرائيل وجمهورية الصين الشعبية، وتقلصت مبيعات ميلتشان فى تايوان كلياً تقريباً.

بالإضافة لإمداد الحكومات الأجنبية باحتياجاتها، شجع ميلتشان سميث على تكوين صورة محترمة وشرعية لميلكو كشركة تخدم مصالح احتياجات الدفاع

العسكرى الأمريكية بالعمل مع وزارة الدفاع الأمريكية البنتاجون. لكن بالطبع، كانت مهمته الكبرى هى توفير الإمدادات لاحتياجات الدفاع العسكرى الإسرائيلية ووفقاً لعضوى مجلس إدارة شركة ميلكو إيڤان غيتينغ وأرثر بيهل، فقد لاحظا منذ البداية المبكرة لعملهما فى شركة ميلكو أن سميث كان يقضى معظم وقته ويبذل طاقته فى شراء مواد ومعدات مزدوجة الاستخدامات لإسرائيل، تشمل مواداً ذات طابع نووى. وكان سميث يسعى جاهداً لشراء منتج مشتق من اليورانيوم اسمه الملح الأخضر يمكن معالجته ليصبح فى جودة يورانيوم الأسلحة. وفى هذا، يقول بيهل "لم يكن لديّ دليل على حدوث أى شىء مخالف وظننت فقط أنها طريقة غريبة لأداء العمل، وكنت أتساءل لِم يدفع الإسرائيليون تلك المصاريف بينما يستطيعون أن يشتروا نفس المعدات مباشرة بأموال المعونة الخارجية الأمريكية".

ظل هناك تساؤل حول لجوء إسرائيل لاستخدام وسيط تدفع له تكاليفه على الرغم من أن الولايات المتحدة لم تمانع فى تلقى إسرائيل تلك الأغراض. وعندما سأله صحفى من جريدة واشنطن بوست بعد أعوام عن سبب استخدام إسرائيل وسيطاً لجلب بعض الأغراض، أجاب يوسى غال المتحدث باسم السفارة الإسرائيلية باقتضاب لأن إسرائيل تفضل أحياناً استخدام خدمة الوسطاء، وما لم يستوعبه صحفى واشنطن بوست أن عمليات الشراء الإسرائيلية بأموال المعونة الخارجية الأمريكية كانت يوثق لها فى السجلات العامة، لكن استخدام الوسطاء صعَّب على المراقبين الخارجيين متابعة ما تشتريه إسرائيل بالضبط، بما أن المبيعات لم تكن إلى الحكومة الإسرائيلية، لكنها كانت إلى كيان آخر، وأحياناً إلى كيانات متعددة. وفى الواقع، كانت تلك من ممارسات الاستخبارات المضادة الشائعة. أما حقيقة أن العمولات كانت تستخلص من العمليات وتحول إلى حسابات سرية يتحكم فيها ميلتشان لتمويل أنشطة إسرائيل السرية فلم تدخل

فى صلب النقاشات الدائرة.

وكانت الإدارة الأمريكية على اطلاع إلى حدٍ كبير بتلك الأنشطة، واتبعت سياسة لا تسأل، ولا تخبر والموافقة المضمرة غير الرسمية. لكن لم يكن بالإمكان إرسال تلك الرسالة إلى المستويات الدنيا من المسئولين عن تطبيق القانون.

وصف روبرت مينهارت عضو مجلس إدارة ميلكو والعالِم النووى فى برنامج ٦٠ دقيقة على شبكة سى بى إس فى عام ١٩٩٠ كيف بدأ يشعر بعدم الارتياح لشركة ميلكو بعد واقعتين تتعلقان بميلتشان. حدثت الأولى عندما سأله ميلتشان عن تصميمات مفاعل نووى متقدم، والثانية حينما طلب ميلتشان عنصر الكلور السداسى، وهو عنصر آخر مفيد فى عملية تخصيب اليورانيوم. ويزعم أرثر بيهل أن ميلتشان قدمه شخصياً إلى مسئول إسرائيلى سأله عن طريقة الوصول إلى المواد النووية من دون اللجوء للحكومة. ويزعم بيهل أنه أبلغ المباحث الفدرالية إف بى آى بتلك الواقعة فى الحال واستقال من مجلس إدارة شركة ميلكو. وبحلول عام ١٩٨٢، كان الثلاثة كأعضاء فى المجلس قد استقالوا من مجلس الإدارة. وبالإمكان النظر إلى تصريحاتهم اللاحقة فى سياق أنهم رجال كانوا يسعون لحماية أنفسهم بعد الأفعال التى ارتكبوها. ويزعم ميلتشان أن حديثه مع روبرت مينهارت لم يأت به أى ذكر لمفاعل نووى، وكان بخصوص تطوير نظام جديد يترجم النوتة الموسيقية إلى اتصالات مرئية، وهو مشروع كان يعمل عليه وصديقه الممثل ريتشارد دريفوس. ولعب دريفوس دور البطولة فى فيلم "كلوس إنكاونترز وِذ ذا ثيرد كايند" من إخراج ستيفن سبيلبرغ، والذى عرض نظاماً كهذا للتواصل مع الفضائيين.

وبالرغم من الاستقالات، كانت شركة ميلكو تعمل بكامل كفاءتها. وأثناء كل

تلك الفترة، استمر سميث فى العمل فى مجلس إدارة شركة روكويل إنترناشونال. وعلى الرغم من أن منصبه لم يكن يتطلب عملاً كثيراً، فقد سمح له بالحفاظ على تصريحه الأمنى بالغ السرية.

فى تلك الأثناء، كان اهتمام ميلتشان بالأفلام يتزايد. وكان استثماره الأول والوحيد الحقيقى فى السينما الإسرائيلية فيلم إسرائيلى اسمه ديزنغوف ٩٩، من إنتاج عام ١٩٧٩ عن مجموعة من الشباب الإسرائيلى الذين -مثل ميلتشان- أصيبوا بعدوى فيروس صناعة الأفلام ويسعون لصناعة فيلم للتوعية الاجتماعية. وترك فيلم ديزنغوف ٩٩ علامته فى إسرائيل بفضل مشهد جنسى طويل وجرىء بالنسبة لتلك الحقبة، تمارس فيه البطلتان "أنات أتزمون" و"جالى أتارى" الجنس فى ذات الوقت مع بطل الفيلم غيدى غوف. وينتهى الفيلم برحيل غوف عن إسرائيل إلى الولايات المتحدة بعدما أصابه الإحباط من محدودية صناعة السينما بإسرائيل وصعوبتها.

سئل ميلتشان مرات عديدة عن سبب عدم استثماره ثانية فى صناعة السينما الإسرائيلية منذ فيلم ديزنغوف ٩٩ . يمكن التوصل للإجابة بطرق شتى فى نص الفيلم نفسه. لم يكن ميلتشان يهتم بالسوق المحلى المحدود، وكان يهدف إلى تنفيذ مشروعات كبرى. وأراد أن ينتج أفلاماً يشاهدها العالم بأكمله وعنه. ولم تكن السوق المحلية الصغيرة تناسب طموحاته الواسعة أو احتياجاته المهنية.

وفى ١٣ مايو عام ١٩٨٠، افتتح ميلتشان مسرحيته الموسيقية الثانية فى برودواى بعنوان "من اللطيف أن تكون متحضراً"، فى مسرح مارتن بيك فى نيويورك هذه المرة. واستمر العرض لـ٢٣ دورة بحشود أجهزت على تذاكره. وبعد ذلك أتى النقد اللاذع من الناقد المسرحى فى جريدة نيويورك تايمز فرانك

ريتشارد، وفى الليلة التالية بيعت ١٤ تذكرة فحسب.

كانت تلك تجربة مريرة وأنهت مؤقتاً مسيرة ميلتشان القصيرة كمنتج لمسرحيات برودواى الموسيقية. وبدلاً من ذلك وجه انتباهه لمسلسل تليفزيونى مبهر كان يفكر فيه. وسرعان ما طرح على شبكة إيه بى سى فكرة مسلسل قصير تاريخى عن الحصار الرومانى القديم لماسادا. وأعلن اقتراحه هذا عندما كانت المسلسلات التاريخية القصيرة لا تزال فى قمة نجاحها، وبدأ الأمر بمسلسل "الجذور" عام ١٩٧٧، وجزئه الثانى "الجذور: الجيل التالى" عام ١٩٧٩، وعرض كلاهما على شبكة إيه بى سى. ونافستها شبكة إن بى سى بمسلسل "شوغون" الناجح، والذى رواه أورسون ويلز وقام ببطولته ريتشارد شامبرلين.

حتى آنذاك، كانت شبكة إى بى سى مهيمنة على ذلك النوع من الأفلام حتى مسلسل "شوغون" لذا، ودّت لو استطاعت الرد على منافستها، واقترح ميلتشان ما شعروا وأنه فكرة ملائمة. وبالطبع كان من المقبول أنه أخذ على عاتقه التوقيع على عقد ضمان إكمال العمل لتمويل المشروع بأكمله، بالاشتراك مع استوديوهات يونيفرسال. وأُعطيت إشارة البدء من مديرى شبكة إيه بى سى. وأتاحت تراجيديا "ماسادا" القديمة فرصة جيدة لإسرائيل لشرح معضلتها الأمنية الصعبة للجمهور الأمريكى ولتوضيح سبب احتياج إسرائيل، ذلك البلد الصغير المحاط بأعداء أقوى منه بمراحل، اتخاذ إجراءات استثنائية حتى لا تسقط "ماسادا" مجدداً أبداً.

وتمكن ميلتشان من توفير كل الدعم الذى يمكن تخيله من الحكومة الإسرائيلية، والتى سرعان ما أدركت أهمية العلاقات العامة. اقترح موشيه ديان إنشاء سلم صعود يؤدى إلى قمة الجبل التاريخى، ليحاكى السلم الذى بناه الرومان للاستيلاء على الحصن وصدّق وزير الدفاع عيزر وايزمان على الاقتراح.

صمم السلم المهندسون أنفسهم الذين صمموا الجسر الإسرائيلى عبر قناة السويس أثناء حرب يوم الغفران. واختار ميلتشان الممثل الإنجليزى الشهير بيتر أوتول بطل فيلم لورانس العرب، ليلعب دور لوشيوس فاليفيوس سيلفا، الجنرال الرومانى فى أواخر القرن الأول الميلادى، وحاكم إمارة يهودا، والذى قاد الجيش الرومانى إلى حصن قمة الجبل بعد حصار طويل. وتم اختيار بيتر شتراوس أيضاً ليلعب دور إليعازر بن يائير، قائد اليهود المحاصرين والذين انتحروا جماعياً فى النهاية. وأثناء التصوير، احتفل ميلتشان بطقس بلوغ ابنه ياريف فى قاعة طعام الموظفين فى معهد وايزمان فى روحوفوت. وكان طاقم الخدمة يرتدون أزياء موقع تصوير مسلسل "ماسادا".

كان مسلسل ماسادا أول نجاح مالى ونقدى يحققه ميلتشان فى عالم الاستعراض. احتفى به النقاد وتم ترشيحه لعدة جوائز، ورشح الممثل بيتر أوتول لجائزة إيمى لأحسن ممثل، وفاز الممثل ديفيد وارنر الذى لعب دور السيناتور بومبينوس فالكو، بجائزة إيمى لأحسن ممثل مساعد. ولاحقاً تم تنقيح المسلسل القصير فى فيلم مدته ساعتان كفيديو ولاحقاً على الدى فى دى، ومن توزيع يونيفرسال.

تعرف ميلتشان أثناء أول تعامل له مع استوديوهات يونيفرسال، على سيدنى شاينبرغ رئيس مجلس إدارة شركة إم سى إيه إنك، وهى الشركة الأم ليونيفرسال. وما لم يكن يعرف ميلتشان، أنه أثناء إنتاج مسلسل ماسادا كرهه شاينبرغ فى الحال، إذ رأى أن ميلتشان تفاوض لتحقيق مكاسب ضخمة لنفسه من إنتاج المسلسلات الصغيرة والالتزام بتكلفتها. أما فى الحقيقة، فقد أظهر ميلتشان خبرة واسعة فى المشاريع لم يتوقعها شاينبرغ من منتج مبتدئ. وبمساعدة صديق ميلتشان سيدنى بولاك منتج مسلسل ماسادا المشارك والمخرج

المخضرم الحائز على جائزة الأوسكار، اكتشف ميلتشان عديم الخبرة العديد من الأخطاء فى جدول التصوير كانت لتؤدى إلى تخطى معدل الميزانية بكثير. إذ كان الجيش الرومانى بأكمله سيتم تصويره وهو يعبر الصحراء فى نصف يوم، وكان احتراق القدس سيتم تصويره فى ليلة واحدة. وعندما بيَّن بولاك استحالة ذلك، عاد ميلتشان إلى يونيفرسال وأعاد التفاوض بشأن الشروط، مما ضايق شاينبرغ.

ولم يكن شاينبرغ من الأشخاص الذين يظهرون ما يبطنون من مشاعر، لكنه توصل لاحقاً لطريقة لوضع عقبات خطيرة فى طريق ميلتشان، والتى أدت لخصومة أسطورية وشديدة العلانية فى هوليوود.

وبالرغم من تلك العداوة الهوليوودية، فقد اعترف ميلتشان أكثر من مرة بأنه من أشد المعجبين بل إنه حتى مهووس بالعديد من الممثلين. وليست مصادفة أن الكثيرين يحبون مقارنته بجاتسبى العظيم، البطل الخيالى لرواية إف سكوت فيتزجيرالد "ذا غريت جاتسبى" الثرى الغامض إذ إن مصدر ثروته لم يكن مفهوماً بشكل كلى وأحاطت به الشبهات، كما أنه يجسد بطرق شتى تشويه الحلم الأمريكى. ومثل جاتسبى فقد شعر ميلتشان بحساسية هائلة تجاه "وعود الحياة"، كما جاءت أوصافها فى رواية فيتزجيرالد. وكان ينزع إلى اجتذاب علية القوم، والناجحين، والفائزين من خلال صراحته وحس دعابته وأمواله.

كان أحد أقرب أصدقاء ميلتشان هو المخرج البولندى رومان بولانسكى، الذى أخرج أفلاماً شهيرة مثل "روزماريز بيبى" و"تشايناتاون". بولانسكى الناجى من المحارق النازية، كان متزوجاً فيما مضى من الممثلة شارون تيت، والتى قتلت بخسة فى منزلهما على يد عائلة مانسون بينما كان بولانسكى مسافراً يصور

فيلماً فى أوروبا. كانت تيت حاملاً بطفل بولانسكى آنذاك. هرب بولانسكي لاحقاً من الولايات المتحدة إلى فرنسا بعد اتهامه بممارسة الجنس مع فتاة قاصرة.

وبعد هروبه من الولايات المتحدة،واجه بولانسكى صعوبة فى جمع تمويلات لمشاريعه بسبب عدم قدرته على العمل فى هوليوود. وذات يوم فى باريس عام ١٩٧٨، قابل أحد أكبر معجبيه وهو ميلتشان. وبعد ذلك بفترة وجيزة، بدأ الاثنان يتعاونان فى مشروع فيلم جديد اسمه "بيراتس" أو القراصنة،وهى كوميديا سوداء تسخر من أفلام القراصنة الهوليوودية.

اتفقا على ٢٠ مليون دولار ميزانية للفيلم،وأقنع ميلتشان بولانكسى بإنتاج الفيلم فى إسرائيل. وعين صديقه عيزر وايزمان، والذى كان قد ترك للتو منصبه كوزير للدفاع ليكون المنتج المنفذ للفيلم، المسئول بشكل عام عن بناء سفينة قراصنة عملاقة فى حوض بناء السفن فى ميناء حيفا. وكان كل شىء يسير على ما يرام حتى أخذ بولانسكى إجازة فى مدينة بالى، حيث بدأ فى إعادة كتابة السيناريو، بما أدى إلى زيادة فى الميزانية قدرها ١٨ مليون دولار.

فى ذلك يقول ميلتشان "بإمكان بولانسكى أن يتصرف كصبى صغير أحياناً، وقد أصر بعناد على ميزانية لم أكن مستعداً لزيادتها. ومن ثم، حزم عتاده وترك المشروع. ولم نتحدث لعامين، ولحسن حظى، تمكنت من بيع سفينة القراصنة إلى شركة الكهرباء الإسرائيلية،والتى استخدمتها فى نقل الفحم إلى محطات الكهرباء".

وبعد عامين فى ١٩٨١، تلقى ميلتشان مكالمة من حيث لا يحتسب من بولانسكى بخصوص مسرحية كتبها الكاتب المسرحى الإنجليزى بيتر شافر، واسمها أماديوس. وأراد بولانسكى أن يعرض المسرحية فى مسقط رأسه فى

بولندا، فى أوج نشاط حركة التضامن والاضطرابات السياسية الهائلة، كإعلان للمساندة.

وبالرغم من أن ميلتشان لم يفكر فى أن الاحتمالات الربحية تستحق المجازفة من وجهة النظر العملية، إلا أنه مول المشروع كتعبير فكرى، وكتصرف تقويضى ضد النظام الشيوعى. وكان يحدوه الفضول أيضاً بالنسبة للبلد الذى هرب منه جده قبل أعوام.

ولد حاييم إليعازر ميلتشان جد أرنون والذى ترك تأثيراً بالغاً على حياة أرنون، فى يوم بارد فى ديسمبر عام ١٨٧٩ على حافة بحيرة اصطناعية صغيرة جميلة، وهى نتاج سد صغير بناه أسلاف أرنون على مشارف مدينة غونيادز فى منطقة باوستوك فى الركن الشمالى الغربى من بولندا الحالية.

وفى الرابعة عشرة من عمره، سافر حاييم مسافة كبيرة جنوب أوديسا على البحر الأسود، وحده، حيث استقل سفينة إلى فلسطين العثمانية ووصل إلى ساحل مدينة يافا، أقدم مدنية يعمرها السكان بأسلوب مستمر فى العالم، فى مطلع ربيع عام ١٨٩٤ .

وبعد ثمانية أعوام كعامل فى مزرعة، فى عام ١٩٠٢ اشترى فى النهاية، أرضاً فى مجتمع روحوفوت الجديد، حيث أصبح عضواً مؤسساً هاماً لهذا المجتمع وأقام أحد أكبر كرمات العنب فى المنطقة. وخلال أشهر تزوج من جدة أرنون إيستر شلانك من القدس، وأنجبا ٧ أبناء، ومنهم ابنه دوف والد أرنون.

ومن جهته فقد تمكن بولانكسى، وهو مواطن بولندى، من توفير العوامل اللوجيستية لمسرحية أماديوس، وبدأ إنتاج المسرحية فى ظل ظروف صعبة. كانت المسرحية بمثابة تعبير قوى فى بلد لم يكن قد شهد منذ أعوام إنتاجاً فنياً مثل

هذا. وكان الهدف الرئيسى منها هو رفع الروح المعنوية للبولنديين، والذين عاشوا عقوداً من الاستبداد وما يصاحبه من قيود ثقافية. وقرر أرنون أن يساهم بكل عائدات المسرحية لحركة التضامن لشراء أى شىء يحتاجونه لدعم الثورة فى أهم لحظاتها المصيرية.

وعرضت مسرحية أماديوس ثلاث عشرة مرة أمام جمهور واقف، وتجمعت صفوف طويلة خارج المسرح فى كل عرض على أمل أن تتوفر أية تذكرة. كان تاديوس لونيكى من أهم الممثلين والمخرجين فى بولندا والذى وصف المسرحية كطفرة ثقافية قائلاً "ربما تكون أماديوس المسمار الذهبى فى نعوشنا" فى إشارة إلى النظام السياسى البغيض. ولم يتمكن أرنون من السفر إلى بولندا، لذا كان بولانسكى بمثابة عينيه وأذنيه، وقد يذهب البعض إلى وصفه بوكيله.

وخلال أشهر تم حبس قائد حركة التضامن ليخ فاونسا، ومضت ثمانية أعوام قبل أن ينهار النظام الشيوعى. وبعد ٩ أعوام وفى ديسمبر ١٩٩٠، تم انتخاب فاونسا رئيساً للبلاد، وكانت دعوة أرنون لزيارة بولندا، ليكرمه على إسهاماته من أجل حركة التضامن فى أوج الصراع، من بين أول قراراته.

سافر ميلتشان إلى وارسو يصحبه روبرت دى نيرو ورومان بولانسكى وصديقه مائير تيبير، ثم توجهوا إلى حوض سفن غدانسك حيث بدأت الثورة، وقابلوا قائد حركة التضامن سابقاً والذى أصبح الرئيس ليخ فاونسا.

شجعهما نجاحهما فى وارسو، فقرر ميلتشان وبولانسكى عرض المسرحية فى مسرح ماريغنان فى شارع الشانزليزيه فى باريس، حيث لعب بولانسكى دور موتسارت أى دور البطولة. وهناك أيضاً حقق نجاحاً ساحقاً وكان بإمكان العرض أن يستمر لسنوات. لكن بولانسكى أخبر الكاتبة لويز بارداخ فى مقابلة

مع مجلة إل إيه، "لكننى لن أستطيع تقديمها للأبد" لأنها عُرِضت لعام كامل.

ويصف بولانسكى ميلتشان بأنه رجل أعمال مخضرم يلتزم بكلمته ومنضبط. ومن المفهوم أن يظل بولانسكى مخلصاً لميلتشان، الذى وقف بجواره فى وقت بدا فيه أن مسيرته المهنية لن تتعافى، ومنذ مسرحية أماديوس ظل الاثنان صديقين مقربين.

عُرِضت على أرنون فكرة تحويل المسرحية لفيلم طويل. وفكر فى الأمر بضع دقائق قبل أن يرفض هذا العرض، "لن تترجم بشكل جيد إلى فيلم سينمائى" قالها ميلتشان بثقة وبتأكيد خاطئ. بل إنه حاول حتى إقناع المخرج ميلوس فورمان تجنب النسخة السينمائية، والتى جلبت لفورمان فى النهاية جائزة الأوسكار كأفضل مخرج لعام ١٩٨٤ . ولم تكن تلك المرة الأخيرة التى رفض فيها ميلتشان فكرة تحولت لاحقاً إلى فيلم ضخم يهز أطراف الأرض فى مجال الترفيه.

استمر بولانسكى فى استشارة ميلتشان فى توزيع أفلامه، ومنها فيلم مستوحى من أمر حساس يخص صديقه المقرب. فى عام ١٩٨٨، ألف بولانسكى وأخرج فيلم "فرانتيك" أو المسعور، من بطولة هاريسون فورد. ويلعب فيه فورد دور الطبيب ريتشارد ووكر، وهو جراح أمريكى يزور باريس مع زوجته لحضور مؤتمر طبى. وفى غرفتهما فى الفندق، تكتشف زوجته أنها ربما أخذت الحقيبة الخطأ من المطار.

وبينما كان ووكر يستحم، اختفت زوجته من غرفة الفندق. وافترض أنها نزلت إلى مكتب الاستقبال للتعامل مع شأن الحقيبة. وعندما لم تعد، أصابه القلق وبدأ يبحث عنها فى أرجاء الفندق. وتتصاعد الحبكة عندما يطلب مساعدة طاقم

الفندق المهذبين وغير المبالين، ولكنه لا يلقى نجاحاً. ثم بعد ذلك يهيم فى الشوارع بحثاً عنها.

يسترق السمع شخص عابر فى الشارع وهو فى المقهى ويخبر ووكر أنه رأى زوجته تساق بالقوة إلى سيارة. ويتشكك ووكر فى ذلك حتى يجد السوار الخاص بزوجته على الرصيف. ويتصل سريعاً بالسفارة الأمريكية وبشرطة باريس لكنهم يستجيبون بشكل بيروقراطى، ويتضاءل الأمل لديه فى أنهم سيبحثون عنها.

ثم يظهر أن الحقيبة، كانت تحتوى على نسخة مصغرة من تمثال الحرية، مخبأ به وحدة كرايترون، وهى ذات الآلية القادرة على تفجير الأجهزة النووية والتى عمل ميلتشان جاهداً للحصول عليها.

ينتهى الفيلم بمواجهة حيث يطلق الإرهابيون العرب سراح زوجة ووكر. لكن، تقوم معركة حامية بالرصاص بين الإرهابيين والموساد الإسرائيلى الذين كانوا يقتفون أثرهم. يلقى ووكر وهو غاضب ومستاء وحدة الكرايترون فى النهر، مما يجعلها غير ذات نفع.

ويبين الفيلم الذى أنتج عام ١٩٨٨، الإجراءات الخطيرة التى تتخذ لنقل وحدة كرايترون واحدة. أما فى الواقع، فقد اشترى ميلتشان المئات منها ونقلها. وفى الواقع أيضاً، ما كان لبولانسكى أن يعرف بأهمية الكرايترون أو بوجوده بدون صديقه أرنون.

■ ● ■

وفى عام ١٩٨١، يقابل بنيامين بلومبيرغ أخيراً نده أرييل شارون الملقب بالبلدوزر، والذى كان قد تم تعيينه وزير الدفاع الإسرائيلى الجديد. وقرر شارون

استبدال بلومبيرغ برافي إيتان صديقه المقرب منذ سنوات كثيرة ورئيس الموساد السابق، إذ رأى أن منصب رئيس وكالة لاكام من أخطر المناصب في منظومة الدفاع الإسرائيلية الكبيرة. واستمر التناحر الداخلي لبضعة أشهر، لكن في النهاية اكتملت عملية الإبدال. وكان رافي إيتان ذو الأعوام الخمسة وخمسين رجلاً قصير القامة يلبس نظارات سميكة وله تاريخ طويل في الموساد. كان إيتان شخصياً هو من قاد الفرقة التي ألقت القبض على أدولف إيخمان في الأرجنتين. وكان يعرف ميلتشان جيداً، وعلى دراية كاملة بأنشطته التي يقوم بها نيابة عن لاكام.

وخلال أيام من رئاسته للاكام، دعا ميلتشان لمكتبه للحديث. ولم يكن هناك حاجة للشكليات. وعقب الاجتماع حان وقت العمل كالمعتاد. وكانت ديبورا مساعدة ميلتشان تعمل بشكل يومي مع رئيس لاكام الجديد. وعقب ذلك بفترة وجيزة، تلقى ريتشارد كيلي سميث الطلبية الرابعة عشرة من مفاتيح الكرايترون من شركة هيلي تريدينغ ليمتد. وبدأ يورد الطلبية بالطريقة التي صارت معتادة آنذاك، وهي تصريح التصدير المعتاد من وزارة التجارة. ووثق قسم المحاسبة في ميلكو إجمالي ٨١٠ مفتاح كرايترون تم شراؤها بإجمالي ٦٠٧٥٠ دولار.

لكن الشحنة الرابعة عشرة من مفاتيح الكرايترون كانت مختلفة. تلك المرة عندما وصلت المفاتيح لشركة ميلكو قادمة من مصنعها إي جي آند جي في ماستشوستس، كانت هناك جملة واضحة على الصندوق للتحذير: تصدير هذا المنتج يتطلب ترخيص تصدير ذخائر.

وكان ذلك الملصق جزءاً من حملة على نطاق أوسع في الولايات المتحدة للتضييق على الصادرات مزدوجة الاستخدامات ذات التطبيقات النووية. وشعر

سميث بقشعريرة باردة تعبر فى جسده. وتذكر أنه واجه تلك العقبة من قبل، لكنه كان واثقاً أنه سيجد ثغرة مناسبة. وفى تلك المرة راجع الدليل السميك لتراخيص تصدير الذخائر ولم يسعد عندما رأى الكرايترون مدرجاً بين قوائمه، فى فئة تطبيقات الأسلحة النووية.

لكنه قرر مجدداً أن يتجاهل مطلب ترخيص الذخائر وأرسل شحنة الكرايترون الرابعة عشرة بالطريقة المعتادة. وتمنى أن تمر تلك الشحنة بدون أن يلحظها أحد شأنها شأن الشحنات الأخرى.

obeikandl.com